

موجهات وضوابط لتدريس الثقافة الإسلامية

بالجامعات

ورقة مقدمة لورشة العمل المنعقدة بجامعة

القرآن الكريم والعلوم الإسلامية

كتبها: عبد الحي يوسف

رئيس قسم الثقافة الإسلامية

جامعة الخرطوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

فقد كان من الثمرات المرة لتطبيق العلمانية في بلاد المسلمين ذلك التغييب المتعمد للدراسات الشرعية في المرحلة الجامعية، بعدما يدرس الطالب في المراحل الدراسية الأولى من سني حياته معلومات قاصرة عن الإسلام كدين ونظام للحياة وحضارة وتاريخ، حيث لا تتعدى تلك الدراسة أبواباً من أحكام الشعائر. كالطهارة والصلاة والصيام . وشيئاً من السيرة النبوية والسنة المطهرة، مع إهمال غالب لأبواب المعاملات والسياسة الشرعية والعلاقات الدولية، ثم إذا انقضت مرحلة الدراسة الثانوية وولج الطالب أبواب الجامعة ليتخصص في العلوم التجريبية أو الإنسانية فلا حظاً له في قرآن ولا سنة ولا معرفة حلال ولا حرام، حتى استقر في أذهان النخبة . شأؤوا أم أبوا . أن الدين مرحلة حياتية مباركة يراد منها تهذيب الأخلاق والسلوك وتربية الشعور على مراقبة الله عز وجل والعمل على نفع الناس ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً، أما أن يكون الدين ملهماً وموجهاً وحكماً ومشرعاً وأن تسري أحكامه على الحياة كلها دقيقتها وجليلها فما إلى فهم ذلك ولا إلى هضمه من سبيل، ومما زاد الطينة بلة أن كثيرين من هؤلاء النخبة . بل من متفوّقيهم . قد ابتعثوا لإكمال الدراسات العليا في بلاد الغرب حيث تتلمذوا على أيدي أساتيدهم من المستشرقين في ظل أجواء الحرية المزعومة والحياة البهيمية التي لا أثارة فيها من هدى أو دين، فعاد كثيرون منهم وهم مشدوهون بما رأوا مبهورون بتلك الحياة التي يقول فيها المرء ما يشاء ويفعل ما يريد دون وازع من خلق أو ضمير، وشاء الله . جلت حكمته . أن يرجع آخرون من تلك البعثات وقد عرفوا قيمة الدين الذي يعتنقون وحلاوة الحياة التي يعيشون ، في ظل مجتمع متكافل يُوقر فيه الكبير ويُرحم الصغير ويُكفل اليتيم ويُعرف للعالم حقه.

وتحدّثاً بنعمة الله أقول: إن فتنة المثقفين من أبناء هذه البلاد بتلك الحضارة الغربية المادية كانت كبيرة لكنها لم تبلغ ما بلغته في بلاد أخرى قال قائلهم: (إننا لن نبليج المجد حتى نأخذ الحضارة الغربية بحلّوها ومرّها خيرها وشرّها ما يمدح منها وما يذم ما يحمّد منها وما يعاب) وفي بلاد أخرى قال قائلهم: (لا بد أن نأخذ بحضارة الغربيين حتى النجاسات التي في أمعائهم والأوبئة التي في أكبادهم)

وفي أجواء الصحوة الإسلامية التي تعيشها بلادنا متناغمة في ذلك مع سائر بلاد المسلمين، متفوقة عليها في محاولات دؤوب لجعل الدين واقعاً يعيشه الناس في شتى مسارات حياتهم . عسكرية و سياسية وتعليمية واقتصادية وثقافية . صدر القرار الموقّ من وزارة التعليم العالي يجعل مادة الثقافة الإسلامية إلزامية لا يتخرج الطالب . مهما كان تخصصه . إلا بعد دراسة عدد مقدّر من الساعات فيها ، ومن أجل أن يؤتي هذا القرار أكله وتترتب عليه ثمراته وينتج آثاره . بإذن الله . أحببت المساهمة بهذه الورقة شاكرًا لجامعة القرآن جهدها وإسهامها مذكّرًا نفسي وإياهم بقول النبي - ﷺ: (من سنّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيء) وبقوله ﷺ: (الدالُّ على الخير كفاعله). فلنشمر عن مساعد الجد لنخط للأجيال منهجاً يعيد للإسلام بهاءه وللمسلمين ثقّتهم واعتزازهم بدينهم.

أولاً: أهداف المادة

إذا كان كل عمل ذي بال لا بد له من هدف سامٍ يرمي إليه فإن من وراء تدريس هذه المادة أهدافاً عظيمة لا تخفى على من يغار على هذه الأمة وهذا الدين، وهذا الأمر لا بد أن يكون واضحاً في أذهاننا خاصة ونحن نواجه طائفة من الشائنين الذين زعموا أن فرض هذه المادة على طلاب الجامعات يراد منه صبغهم بصبغة ملوّنة لصالح حزب أو نظام بعينه، حتى انطلت هذه الشبهة على كثير من الطلبة الأغرار فقاوموا هذه المادة في أول أمرها ثم درسوها وهم لها كارهون، ولست أدري هل يصدق مروّجو هذه الفرية أنفسهم أم يعلمون أنهم كاذبون؟ وعلى

كل حال لا يحملنا ذلك على أن نعمل على بلوغ معالي الأمور وندع سفسافها، واضعين لأنفسنا أهدافاً نسعى لتحقيقها بتدريس مادة الثقافة الإسلامية منها:

1. تمكين الطلاب من معرفة جملة من العلوم الشرعية الضرورية خاصة تلك التي أغفلت

أثناء مراحل الدراسة الأولى

2. وقايتهم الطلاب من الأوبئة الفكرية والانحرافات السلوكية التي يكثر طرحها في البيئة

الجامعية حتى يختار لنفسه بعد أن يكون عارفاً بدينه

3. الإجابة على أسئلة وشبهات تعكّر على الطلاب صفوهم وتشككهم في دينهم

وتحدث نوعاً من البلبلة الفكرية بينهم

4. بيان اتصال العلوم الشرعية بشتى المعارف والعلوم المعاصرة وأنها حاکمة عليها موجهة

لها

5. إزالة آثار العلمنة الناتجة من تقسيم التعليم إلى نوعين مدني وديني

6. تدريب الطلاب على أساليب الدعوة من خلال التخصصات التي اختاروها لأنفسهم

7. زرع الثقة في نفوسهم بصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان وأنه لا تعارض بين

الدين والعلم والنقل والعقل

8. تمييز الحدود التي يسلكها ويرتادها العقل البشري ويحكم عليها دون غيرها

9. تعميق روح التدبّن العملي لدى الطلاب من خلال بيان الأحكام الشرعية في علاقة

الطالب بالطالبة والتلميذ بالأستاذ

10. فتح آفاق جديدة للدراسات الإسلامية من خلال الإسهام الطلابي في بيان أوجه

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

أهمية تدريس هذه المادة

ولشرح طبيعة هذه الأهداف أقول من خلال التجربة إنه تبين لكل من يدرّس هذه المادة أن ضحالة المعلومات الشرعية هي السمة الغالبة على طلبة الجامعات . ذكوراً وإناثاً . حتى إن المرء ليفجأ بأسئلة من الطالبات مثلاً تتعلق بأحكام الدماء الطبيعية التي كان من الواجب أن يُحطن بها علماً حال كونهن صغيرات في مرحلة الأساس، وكذلك يسأل كثير من الطلاب أسئلة تدل على أن الذهن خلو من المعلومات الأولية كأن يسأل أحدهم: هل الإنسان مسير أم مخير؟ ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتدريس هذه المادة تلافياً لهذه الضحالة التي يعاني منها جمهورهم، ولا نغفل هنا أن الطامة أعظم إذا كان الطالب قد درس المراحل الأولية في مدارس أجنبية حيث تهميش الدين أظهر! ثم إن الطلاب يواجهون عند مجيئهم إلى الجامعة أنماطاً سلوكية وطروحات فكرية يحتاجون معها إلى تحصين مناسب، كما قال علماءنا في علة التأذين في أذن المولود بعد ولادته مباشرة إن ذلك إنما يكون مواجهة لكيد الشيطان، قال النبي ﷺ: (ما من مولود إلا ويستهل صارخاً من مس الشيطان إلا المسيح بن مريم وأمه) فجاءت كلمات الأذان المتضمنة توحيد الله عز وجل والشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة والحث على الصلاة والفلاح ؛ لئلا يشتد تعلق الشيطان به، فكذلك الحال هنا، فلك أن تتصوّر حال إنسان نشأه أبوه على حب الله وتعظيمه والمحافظة على الصلاة في أوقاتها يفاجأ عند أول عهده بالمرحلة الجامعية أن الدين يُسخر منه ويُستهزأ به، أو أن الصلاة مضيعة من أكثر زملائه بل أساتذته، إن شخصاً كهذا قد تنح به ردة الفعل إلى اتباع طرق سمتها الغلو، وقد تقعد به همته فيحاول أن يسير مع التيار وقلّ من يحاول تغيير هاتيك المنكرات بالأساليب الشرعية، وكذلك الحال مع فتاة نشأت على الطهر والحياء في بيئة محافظة ترى في الجامعة خللاً أخلاقياً في علاقة الطلبة بالطالبات، هؤلاء جميعاً بحاجة إلى ثقافة إسلامية تعصمهم من الجنوح إلى الغلو في الدين أو الذوبان في تلك المنكرات والموبقات، ثم إن أركان النقاش تُطرح فيها شبهات تطعن في صميم الدين وقد لا يستطيع أكثر الطلاب الصمود أمامها أو مواجهتها، وكما قال علماءنا فإن الشُّبه خطافة والقلوب ضعيفة وأحياناً تكون هذه الشبهات مطروحة من قبل الأساتذة أثناء المحاضرات، وقد يعجب كثيرون إذا علموا أن بعض الأساتذة ما يزالون يدرّسون للطلاب . في كلية العلوم . نظرية داروين التي أكل الدهر عليها وشرب وغدت في ذمة التاريخ، وأن آخرين . في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية . يقررون

في محاضراتهم أصول الشيوعية في السياسة والاقتصاد والتي صارت إلى مزيلة التاريخ، ناهيك عن أناس يقولون بملء أفواههم: إن الإسلام ليس فيه نظرية اقتصادية! وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم، ولا يغيب عن أذهاننا أن درء تعارض العقل والنقل مطلب هام يجب تقريره من أقصر طريق حتى يصير أصلاً يعرض عليه طلابنا بالنواجذ، خاصة وأنه قد أتى على الناس زمان ظنوا فيه أن الدين والعلم ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتزمان!

ثانياً: اسم المادة

قد يبدو لبعض الناس - بادي الرأي - أن اسم الدراسات الإسلامية ألصق بطبيعة المادة وأنسب لمضمونها من اسم الثقافة الإسلامية، لكن - بقدر من التأمل - يظهر أن الدراسات الإسلامية عَلم على تخصص في فرع معيّن من العلوم الشرعية - كالتفسير أو الحديث أو أصول الفقه - أما هذه المادة فإنها تحوي خليطاً من هذه المعارف كلها وقد قيل في تعريفها: بأنها طريق الحياة التي يعيشها المسلمون في جميع شؤونهم الفردية والاجتماعية، الدنيوية والأخروية؛ وفقاً لتوجيهات الاسلام وتعاليمه. ولا يراد للطلاب أن يحيطوا بأطرافها ولا أن يدرسوا تفاصيلها، وإنما المراد أن يُعطوا نبذة عن تلك العلوم تعصمهم من التأثر بفكر دخيل أو شبهة رائجة، وعليه فإن اسم الثقافة الإسلامية أصدق في التعبير عن واقع هذه المادة ومضمونها من اسم الدراسات الإسلامية؛ لأن حشو أذهان الطلاب بالمعلومات ليس مقصوداً لذاته، بل الغاية الأسمى هي التعريف بفروع العلم الشرعي وفتح الآفاق لمن أراد المزيد، أما إذا أريد استيعاب غير المسلمين في دراستها - وذلك مطلب مهم - لأنه باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الحق؛ فلا يتأتى ذلك إلا بتغيير اسم المادة بحيث تحذف منه كلمة الإسلام؛ حذراً من تهمة الإرهاب أو الإكراه أو غيرها من الفرى والأكاذيب التي تجد لها سوقاً رائجة في هذه الأيام النحسات، كأن يقال مثلاً: الدراسات السودانية أو الحياة السودانية أو غير ذلك من الأسماء التي تخفي طبيعة المادة، وأرى أن في ذلك إخلالاً أكاديمياً حيث لا بد أن يتطابق العنوان والمحتوى حتى تكون القضية صادقة، ولا يحو

ذلك الخلل حسن النية ولا نبل المقصد، والذي يبدو لي أنه ما ينبغي أن يطغى اهتمامنا بغير المسلمين على الهدف الأعلى الذي نرومه من تدريس هذه المادة، ألا وهو تحصين أبناء المسلمين من طرقي الإفراط والتفريط، أما دعوة غير المسلمين فإنه ممكن إدراكها من خلال قنوات أخرى بأساليب مختلفة خاصة وأنا في زمان تيسرت فيه سبل اللقاء بين الثقافات المختلفة وتنوّعت وسائل الإقناع.

ثالثاً: موضوعات المادة الرئيسة

يحسب كثيرون أن مادة كهذه تدرّس في الجامعات لا يتأتى لها النجاح والقبول لدى الطلاب إلا إذا كان التركيز فيها منصباً على موضوعات جاذبة، وتحديدًا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أقول: إننا مطالبون . بحكم الأمانة التي نيطت بأعناقنا . أن ندرّس لطلابنا ما نرى الحاجة إليه ماسة دون كبير نظر للجاذبية وعدمها؛ عملاً بقول ربنا سبحانه (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) قال أهل التفسير: (الرباني هو الذي يبدأ بصغار العلم قبل كباره) ثم ماهو المغزى من تدريس الإعجاز لطلاب لا يعرفون بدهيات الدين في المعتقد والعبادة؟ وما قيمة أن يحيط الطالب علماً بالإعجاز وقد امتلأ قلبه بالشبهات القاتلة والوساوس المحبطة؟ وهو لا يدري . بعد . كيف يثبت أن القرآن كلام الله؟ أو أن مُحَمَّدًا ﷺ رسول الله؟ أو أن الإسلام بريء من تلك التهم التي يروّجها من لا يرجو لله وقاراً ولا يحسب للقائه حساباً . إن الواجب ألا تخلو مادة الثقافة الإسلامية في شتى التخصصات . عدا الشرعية . من أربعة موضوعات رئيسة ثم ينظر فيما عداها، وهذه الموضوعات هي :

1. أصول العقيدة الإسلامية ويشمل ذلك أركان الإيمان . بصورة خالية من تعقيدات الفلاسفة . مع دراسة موجزة للأديان والفرق والمذاهب المعاصرة كاليهودية والنصرانية والشيوعية والعلمانية والشيعة والتكفير

2. أصول العبادات في الإسلام مع التركيز ابتداء على معنى العبادة وشمولها لشتى

مناشط الحياة الإنسانية

3. النظم الإسلامية - بشيء من الإيجاز. في الإجتماع والسياسة والإقتصاد

والأخلاق خاصة تعامل الطالب مع الطالبة

4. وأخيراً الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مع ضرورة التنبيه على جملة القواعد

الشرعية في التوفيق بين العقل والنقل ودرء تعارضهما

وفي هذا كله يراعى اختلاف التخصصات، فما يدرّس لطلاب العلوم الطبية . كالصيدلة والأسنان والطب البشري والمختبرات والتمريض . يمكن أن يُتناول فيه خلق الإنسان بين الطب والقرآن مع التنبيه على الأحكام المتعلقة بممارسة التطبيب والتداوي والآداب اللازمة لذلك، أما طلاب الزراعة والغابات فإنهم يُدرّسون الآيات والأحاديث التي تُبيّن فضل الغرس والحراث والأحكام الخاصة بزكاة الزروع والثمار، وكذلك طلاب البيطرة والإنتاج الحيواني يُدرّسون الآداب الشرعية في التعامل مع الحيوان وما يجوز أكله وما لا يجوز وتتبع العلل الشرعية في ذلك كله على ضوء الأبحاث الحديثة، ويُدرّس طلاب كلية الصحة العامة النصوص التي تتناول صحة البيئة في القرآن والسنة ، ويُركّز لطلاب القانون على الإعجاز التشريعي في نصوص الوحيين الشريفين، والكلام نفسه يُطبّق على النصوص التي يمكن أن ينتفع بها طالب الجيولوجيا أو الأحياء أو الهندسة أو العلوم الرياضية.

ويمثل هذا يكون الطلاب قد مُلِّكوا مفاتيح العلوم التي يستطيع بعدها الموقِّق منهم أن يبني على ذلك الأساس المتين بناءً محكماً يزداد به الذين آمنوا إيماناً، ويكونون دعاة لهذا الدين على علم وبصيرة.

رابعاً: فترة تدريس المادة وساعاتها

المعمول به في جامعة الخرطوم . بعد عدد من التجارب على امتداد سنوات . أن تُدرّس الثقافة الإسلامية في السنتين الأوليين من المرحلة الجامعية، باعتبار تسعين ساعة كلية يتم فيها تحقيق جزء كبير من الأهداف التي سبق طرحها؛ ليستقبل الطالب بعدها ما تبقى من دراسته الجامعية وقد حصل على الحماية الفكرية الواجبة وأمكنه أن يُحسن الاختيار لنفسه، وهذا هو الخيار الأمثل خاصة في الكليات العملية التي يعسر على طلابها . كلما تقدموا في دراسة تخصصهم . أن يتفرّغوا لمثل هذه المادة، حيث إن طلاب الطب مثلاً يكثر بقاؤهم في المستشفى ويندر وجودهم في الكلية مما يصعب معه التوفيق بين الدراسة المتخصّصة والمواظبة على حضور الثقافة الإسلامية، وقد قيل: ما لا يُدرّك كله لا يُترك جله، وإلا فالخيار الأمثل . لو أمكن . أن تصحب هذه المادة أنفاس الطلاب من المبدأ حتى الختام؛ لنضمن لهم حسن الختام!!

خامساً: خاتمة

من نافلة القول التذكير بأن هذا الكلام كله يبقى نظرياً ما لم يصحبه قرار عملي يراقب تنفيذه بشيء غير يسير من الصرامة والحسم؛ لأنه قد عُهد في بعض الجامعات عدم السعي في تنزيل هذه المادة عملياً في الواقع الأكاديمي، بل تبقى حبيسة أدراج المكاتب وأضابير المجالس وقد تحارب من أطراف خفية ملوثة بنظرة علمانية مخيفة، وفي أحسن الأحوال يتم تدريسها دون أن يكون لها تأثير على معدلات الطلاب، وكأنها من المواد الاختيارية أو من الأنشطة المصاحبة للدراسة الجامعية، ولا بد من التذكير كذلك بأن هذه المادة كفيلة بإذن الله أن تخرج لنا جيلاً يرى في الإسلام سر وجوده وروح حياته ويمكننا أن نتقي بها كثيراً من الأمراض الفكرية والأوبئة السلوكية التي ضج بالشكوى منها كل عاقل، لكن هذا كله رهين بوجود الأستاذ الكفاء الذي يحسن العرض ويتقي الله فيما يقول، ولقد رأينا بعض أساتذة هذه المادة يتزاحم على محاضراتهم الطلاب وينادي بعضهم بعضاً: هلموا إلى حاجتكم، وهم من غير الدفعة التي طُلب منه تدريسها؛ وذلك لحسن ما يسمعون ولسهولة ما يفهمون، ورأينا أساتذة آخرين مخدّلين منقّرين إذا تكلم أحدهم في الثقافة الإسلامية قلت: ليته سكت! وذلك لسوء عرضه وفهاهة تعبيره وقوله

على الله ما لا يعلم حتى إن الطلاب ليجلسون في محاضراته . بحكم الحضور والغياب . ولكأني بهم يعانون الغصص ويتجرعون العلقم وإلى الله المشتكى، ولا يغيب عن بال الفضلاء أن بعض الطلاب معلوماته الشرعية غزيرة وبضاعته غير مزجاة، ولقد رأينا من بين طلاب الطب والهندسة من يحفظون القرآن كاملاً، فما الظن بهؤلاء إذا سمعوا أستاذ الثقافة الإسلامية يلحن في قراءة آية ويتلجلج حين يورد حديثاً ويضطرب عند مواجهة سؤال، هل يظن هؤلاء بالثقافة الإسلامية أو بالقائمين عليها خيراً؟ إن الدولة . ممثلة في وزارة التعليم العالي . تُحسن صنعاً إن هي عملت على استيعاب الكفاءات الطيبة في هذا المجال ولو بعقود خاصة من أجل أن توقّر على نفسها أموالاً تُنفقها للترويج لمشروع الحجاب مثلاً أو لمحاربة مرض نقص المناعة المكتسب (الأيدز) أو غيرها من الأغراض التي تتكفل الثقافة الإسلامية بتحقيقها. إن شاء الله . إن وجدت هذه المقترحات آذاناً صاغية ونفوساً حادبة وقلوباً غيورة وهذا هو الظن بكم ، والله الموفق والمستعان.

كتب هذه الورقة

عبد الحي يوسف

رئيس قسم الثقافة الإسلامية . جامعة الخرطوم